

الدكتور محمد عيد
الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

مكتبة الشباب
٢٦ شارع إسماعيل سري ـ المنيرة ـ القاهرة
ت ٣١٨٣٥

« إنى رأيت النحويين — رحمة الله عليهم —
قد وضعوا صناعة النحو لحفظ كلام العرب
من اللحن وصيانته عن التغيير ، فبلغوا من
ذلك إلى الغاية التى أمّوا ، وانتهوا إلى المطلوب
الذى ابتغَوا ، إلا أنهم التزموا مالا يلزمهم
وتجاوزوا فيها القدر الكافى فيما أرادوه منها
فتوعرت مسالكها ، ووهنت مبانيها
وانحطت من رتبة الإقناع حججها .

على أنها إذا أخذت المأخذ المبرأ من
الفضول ، المجرد عن المماحكات والتخييل
كانت من أوضح العلوم برهانا ، وأرجح
المعارف عند الامتحان ميزانا »

(من كتاب : الردّ على النحاة)
لابن مضاء القرطبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عاشت صورة هذا الكتاب فى عقلى ووجدانى زمنا طويلا ، وكانت هناك مجموعة أسباب تعاونت جميعا على هذه المعايشة الطويلة ، ثم دفعتْ أخيرا إلى تنفيذه بعد أن هيّأتْ نفسى لأهلية تأليفه ، ورسمت خطته التى التزمتها فى كل أبوابه وأفكاره - وهذه المقدمة ينبغى أن توضح للقارئ - بإيجاز - الجانبين السابقين من دوافع التأليف والنهج الذى التزمته فى تنفيذ هذا المؤلف .

من هذه الأسباب أن طول الصحبة لكتب مسائل النحو القديمة - مطولة ومختصرة ، نثرا ونظما - تؤكد لدى كل منصف أن هذه الكتب صعبة الفهم على الشادين فى النحو ، بل إن بعضها يتعذر استيعابه على الدارسين المتخصصين أنفسهم ، وذلك لامتلائها بالحشو والفضول ، أو كما يقول ابن مضاء : « بالمحاكات والتخييل » ففيها حشود من المجادلات الذهنية العقيمة وألوان من العلل والعوامل التى يسوغها منطق العقل لا منطق اللغة ، يضاف لذلك كله تخرجات مجهدة واستطرادات شتى وفروع من المسائل متفرقة وغير ذلك ، مما ينطمس معه وجه النحو الأصيل تحت ركام المزيف الدخيل .

لذلك أحسست - بعد طول الصحبة مع هذه المؤلفات - أن هذا الجهد المشكور للنحاة - رحمهم الله - بعضه مفيد للغة ، وبعضه طفيلى معوق عن الوصول لما هو مفيد ، بل إن هذا الأخير هو الغالب على مطولات النحو من مؤلفات المتأخرين ورأيت أن الواجب بذل جهد مخلص لتخليص المفيد من الطفيلى المعوق والإبقاء على « نحو اللغة » لا « نحو الصنعة »

ومن هذه الأسباب أن تخصصى فى الدراسات العليا هيأ لى - بكل ظروفه -

أن أعايش القضية السابقة فى وجهيها الأصيل والدخيل درساً وتقويماً وموازنة وكان مجال ذلك كله « منهج النحو العربى » أو بعبارة أخرى : الأسس التى أحكمته وتحكمت فيه ، مما كشف لى بطريقة علمية محددة ما كنت أحس به من قبل غامضاً غير محدد ، فتعرفت - على قدر جهدى واجتهادى - على مسار التفكير فى النحو ، وكيف تحاورته ثم كان لى من ذلك كله موقف علمى يستند إلى الدراسات اللغوية الحديثة أعاننى على فهمه أستاذى العالم الجليل الدكتور « تمام حسان » ولم يكن قوام هذا الموقف النقد فقط ، بل النقد والتصحيح ، لم يكن قوامه تشخيص الداء وحده ، بل تشخيص الداء والدواء جميعا ، هذا مع التعاطف التام مع كل ما فى كتاب النحو العربى من أصيل صحيح ورفض ما هو طفيلى مزيف .

صار الإحساس القائم إذن حقيقة محددة ، وأصبحت الشكوى المرورة منهجاً مدروساً ، وانتهت مرحلة الرفض الانفعالى المهوّش ، وبدأت مرحلة الفهم المتزن المدروس ، وخرجت من دخان الظنون والتخمين إلى مناخ أقرب ما يكون إلى التحديد واليقين ، فازددت اقتناعا بضرورة تصفية النحو من أوشابه وعلاجه من أوصابه والكشف عن وجهه الصحيح المشرق .

وفى أثناء ذلك كنت أعيش التجربة فى صورة أخرى غير صورة الكتب القديمة والمنهج ، كنت أعيشها مع الدارسين المتخصصين من طلاب اللغة الذين يجأرون بالشكوى كل حين من النحو وصعوباته التى تتمثل فى تشتت أفكاره وكزازة عرضه ، وتجمد أمثلته ، وغرابة شواهده وتهافت الكثير منها ، مما يترتب عليه تلقائياً التمزق والتململ والكراهية والشكوى المستمرة ، مع أن هؤلاء الحانقين الشاكين هم الذين سيحملون - فيما بعد - أمانة تعليم اللغة للصغار والكبار فى العالم العربى ومسئولية الكلمة المكتوبة والمنطوقة فى حياتنا الأدبية والعلمية .

وفى هذا التصوير السابق للشكوى والتذمر كثير من الحق مع الأسف !! وهو أحد الأسباب التى دفعتنى للخروج من الاقتناع الفكرى المجرد إلى التصميم العملى على تأليف هذا المكتوب « النحو المصفى » ملتزماً فى تأليفه النهج التالى .

١ — قبل كتابة أى موضوع ، كالحال مثلا ، أراجع كثيراً من كتب مسائل النحو القديمة كشروح الألفية ومؤلفات ابن هشام وغيرهما للإحاطة التامة بكل أفكار الباب كما عرضته هذه المصادر الأصيلة .

٢ — أقوم — بعد ذلك — بتصفية مالا فائدة فيه وما لا ضرر فى تركه كالمجادلات الذهنية والاستطرادات الجانبية والتمارين غير العملية والمسائل المقحمة فى غير موضعها وفلسفات العوامل والخلاف حولها والعلل والتعلات والتخريجات الظنية وغير ذلك مما لا يفيد نطقاً وأساء إلى كتاب النحو العربى ، وعوق فهمه وأطال نصه ، ليبقى بعد ذلك جوهر الموضوع وخطه الواضح الأصيل .

ولا حاجة بى إلى القول بأن هذه التصفية تتم فى إطار منهج مدروس - وإن كان غير منظور - هو ما أفدته فى دراستى العليا للماجستير والدكتوراه ، فهى تصفية مضبوطة لا مندفعة ، واعية لا عشوائية .

وسيجد القارىء فى بعض الأحيان هزاً لبعض المسائل التقليدية ونقضا لها مع ذكر الرأى فيها بعد عرضها فى إيجاز شديد كما قررها النحاة - رحمهم الله - وهذا عمل متعمد وراءه منهج علمى مدروس ، وهو فى الوقت نفسه جانب من جوانب التصفيه التى استهدفها هذا الكتاب ومؤلفه .

٣ — نظمت الأفكار المصفاة للموضوع - كل موضوع - بطريقة تصل إلى الذهن متكاملة ، ومن أقرب طريق ، وقدمت هذه الأفكار المنظمة ملخصة فى سطور قليلة عند بدايته لتقدم للقارىء بنظرة واحدة سريعة ما هو قادم عليه من دراسة الباب كله .

٤ — عرضت الأفكار - بترتيبها فى مقدمة الباب - بأسلوب سهل مساو لا كزازة فيه ولا غموض ولا تزيد ، أسلوب مفهوم معاصر واضح لا يقف أبداً حاجزا بين القارئ وفهم الأفكار ، فلا يضيع منه أىّ جهد فى غير الفهم نفسه .

• — استخدمت أمثلة حديثة بدل زيد وعمرو ، تنمى عقل الدارس وتصقل وجدانه وتزيد خبرته ، وتقربه من لغة الحياة المعاصرة وما تعبر عنه من ثقافة وتجارب ، بالإضافة إلى مهمتها الأساسية فى إفهام القواعد دون تكلف أو صنعة وكثيراً ما بدأت بتلك الأمثلة بين يدى الأفكار ، لتكون وسيلة الاستقراء والاستنتاج ، التخفيف من منهج عرض النحو المعيارىّ الجاف .

ومع ذلك التزمت ـ أثناء عرض الأفكار ـ ذكر ثروة النحو من الشواهد نثراً وشعراً إلا ماتهافت نصه أو أدى إلى مجادلات لاطائل وراءها ، وفى بعض الأحيان لا أقتصر على تقديم الشاهد يتيماً ضائع المعنى ، بل أقدمه ضمن مقطوعته التى توضح معناه ، وتعطف الدارس إليه .

٦ — وضعت بعد كل قسم مجموعة من النصوص للتدريب ، اخترتها من الأدب العربى القديم نثراً وشعراً ، ووراء هذا الاختيار مضمونها الراقى إنسانيا واجتماعيا ووضعت بعد كل منها أسئلة لم أقدم حلها ، وهذه الأسئلة لتطبيق قواعد القسم الذى جاءت بعده على النص ، ليكون حلها وسيلة الفهم والمراجعة والتطبيق .

وبعد : فقد يكون الكلام السابق أهون الأشياء إذا مر عليه القارىء مراً سريعاً وهو يتجشأ أو يتثاءب ، ولكنه ـ فى حقيقة الأمر ـ أصعب الأشياء إذا ما تصورنا أن خطاه تنقلت عبر أكثر من سبعمائة صفحة هى حجم هذا الكتاب ، وأنه جشمنى من الجهد والإجهاد ما أهبه خالصاً لوجه الله .. والعلم .

وإنى لأدعو الله أن ينتفع به القارىء قدر ماتعبت فيه !! وأن يتحقق المرجوّ منه بقدر نيل الهدف من تأليفه (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيق إلا بالله)

القاهرة فى ٢٠ أغسطس سنة ١٩٧١

محمد عيد